# دولة بنى نصر أو بنى الأحمر فى غرناطة
## ٦٢٦ ـ ٨٩٧ هـ / ١٢٣٢ ـ ١٤٩٢ م

بعد انصراف أبى العلاء إدريس المأمون من الأندلس مصطحباً معه من بقى من كبار جند الموحدين فى شبه الجزيرة ، بقيت الأندلس بدون حماية يحسب لها حساب ، وبرز فى صفوف المسلمين نفر من الزعماء كل منهم يحاول أن يتزعم ما بقى من المقاتلين فى الأندلس لكى يقيم لنفسه دولة فى هذا الجزء الباقى للمسلمين فى الأندلس ، وكان قد اقتصر على نهر الوادى الكبير وما يقع جنوبه.

وأهم أولئك الزعماء بنو مردنيش أصحاب بلنسية ، وسيف الدولة محمد بن يوسف بن هود الجذامى الملقب بالمتوكل ، ومحمد بن يوسف بن أحمد بن نصر الملقب بالشيخ .

فأما بنو مردنيش فكان يمثلهم عدد من أحفاد محمد بن سعد بن مردنيش أكبرهم أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن محمد بن سعد بن مردانيش، الذى بدأ أمره كاتباً وقائداً لأمير الموحدين ، وكان يتولى أمر بلنسية ، ثم انصرف هذا الأمير وصار الأمر إلى أبى جميل ولم يستطع أبو جميل الثبات أمام « خايمة الأول » ملك أرغون الذى استولى على بلنسية فى صفر ٦٣٦ هـ/ سبتمبر ١٢٣٨م وأما مرسية التي كانت قد تحولت إلى وحدة سياسية قائمة بذاتها وسماها النصارى بمملكة مرسية ، فقد تولى أمرها رجل يسمى أبا بكر عزيز بن أبى مروان ابن خطاب الذى تلقّب بضياء الدولة ، ولم تكن لدى هذا الرجل من القوة ما يستطيع به الدفاع عن مملكة مرسية وانتهى الأمر بسقوطها فى يد فرناندو الثالث المعروف بالقديس .

وبقى فى الميدان محمد بن يوسف بن نصر الجذامى بن هود الملقب بالمتوكل ، فحاول أن يجمع حوله كل من وجد فى جنوبى شبه الجزيرة من فرسان المسلمين ، وتمكن لفترة قصيرة من أن يصمد للضغط النصرانى ، وأيده الناس فى الأندلس وقد بدأ نشاطه سنة ٦٢٥ هـ ودخلت فى طاعته مرسيةوقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وعدد آخر من صغار المدن والحصون ، ولو كان هذا الرجل على

شيء من الخبرة السياسية والقدرة على تدبير الأمور لثبت أمره ولاستطاع أن يثبت ولو بعض الوقت للضغط النصرانى ، لأن الاتفاق الذى كان قد تم بين مملكتى قشتالة وليون من ناحية ومملكة أرغون من ناحية أخرى فى موضع يسمى بالمرسى كان يقضى بأن ميدان توسع أرغون فى بلاد المسلمين ينبغى أن لا يتعدى مملكة بلنسية فى شرق الأندلس ، وبقية شرق الأندلس من مرسية إلى بحر الزقاق كان ميدان توسع مملكة قشتالة وليون ، أما بلاد الغرب مما يلى قلمرية والأشبونة جنوباً ، فقد ترك للبرتغال تتوسع فيه .

وهذا الاتفاق ـــ اتفاق بالمرسى ـ يدل على أن ملوك النصارى فى شبه الجزيرة كانوا يرون أن قوة الإسلام فى الأندلس قد تلاشت، وأن ما بقى للمسلمين فى شبه الجزيرة أصبح لقمةسائغة لملوك النصارى يتقاسمونه فيما بينهم ، ولم يكونوا مخطئين فى هذا التصور ، لأن المسلمين فى الأندلس فى نهاية العصر المرابطى أثبتوا بالفعل أنهم غير جديرين بتلك البلاد التى كان عليهم أن يدافعوا عنها لتظل بلادهم بلادَ عروبةٍ وإسلامٍ ، فأما وقد تراخوا وتدابروا على الوجه الذى رأيناه ، فقد كان من المؤكد أن البلاد ستضيع من أيديهم لأن الأرض لا يحوزها إلا الجدير بها ، والجدير بالأرض هو الذى يستطيع الدفاع عن حوزتها وحمايتها من العدوان .

نقول إن سيف الدولة بن هود تصدى لزعامة بلاد الأندلس ، وكان فى يده كما رأينا قدر صالح منها ، ولم يكن الرجل بالجبان ولا قليل الحماس ، ولكنه كان أرعن طائشًا ضعيف الخلق سريعاً إلى الحركة ، وقد بايعه الناس فى رجب ٦٢٥ هـ فى موضع قريب من مرسية يسمى الصخور أو الصخيرات ، ولم يكد خبر بيعته ينتشر فى الأندلس حتى تقاطر الناس عليه وأصبح له جيش ضخم يستطيع به أن يحمى ما بقى للمسلمين فى شبه الجزيرة ، لأن خصمه الذى كان يهدد بلاده ، كان فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون ، ولم يكن بالملك القوى أو المؤيد تأييداً كاملاً من جانب أهل بلده ، ولكنه ـ كما قلنا ـــ كان قليل التدبير ضعيف الخلق أسرع بجيشه إلى ماردة ليدفع عنها غارة البرتغاليين ، وعند موضع يسمى الحنش ، وقعت بينه وبينهم معركة تدل على شجاعته وقلة تدبّره فى آن معًا ، فقد هاجم الأعداء واخترق صفوفهم ونفذ إلى خلف الجيش دون أن يرسم إلى ذلك خطة ، ثم

كر راجعاً ليجد أن بقية جنده قد حسبوا أنه انهزم وولّوا على وجوههم ، وبذلك تحول النصر إلى هزيمة ، وأسرع ابن هود بمن معه من أنجاد المقاتلين إلى بلدة مرسية حيث جمع جيشاً كبيراً بلغت عدته ثلاثين ألف مقاتل ، وتمكن من تملك إشبيلية سنة ٦٢٩ هـ ، وولى عليها أخاه « أبا النجاة سالماً » الملقب بعماد الدولة . وفى سنة ٦٣١ هـ طاعت له قرطبة ثم غرناطة ومالقة سنة ٦٣٥ هـ ودخل فى طاعته أصحاب مرسية وامتد سلطانه إلى مدينة الجزيرة الخضراء ، وولى الولاة على هذه البلاد ولكنه لم يستطع السيطرة على ما بيده فقام عليه ولاته ، وفى تلك الأثناء تقدم فرناندو الثالث وحاصر قرطبة يريد الاستيلاء عليها ، وكانت قرطبة قد ضعف أمرها واعتمد أهلها على حماية أنفسهم ، وكانت تنقسم قسمين : الشرقية والمدينة ، وكانت المدينة محصنة تماماً ، أما الشرقية فكان فى حصونها ضعف وثغرات ، وقد دام حصار قرطبة أشهراً حتى نفدت أقوات المدافعين عن البلد ، ثم تمكن نفر من فرسان قشتالة من دخول الشرقية ، وفى تلك الأثناء أرسل أهل قرطبة إلى محمد بن يوسف الجذامى بن هود يستنجدون به ، فأقبل فى جيش عدته ثلاثون ألفاً ووقف عند أستجة وهابه فرناندو الثالث ، فلم يجرؤ على اقتحام البلد واستبشر أهلها خيرا ، ولو أراد محمد بن يوسف بن هود إنجاد عاصمة الأندلس الخالدة لفعل ، ولكن الذى حدث أنه خمل عن اللقاء ، وبعد انتظار أسابيع انسحب بقواته من المرية زاعماً أن صاحبها أبا جميل زيان بن مدافع بن مردنيش قد استنجد به ، وتلك خيانة لا يغفرها له التاريخ ، لأنه عقب انسحابه مباشرة وجد القرطبيون أن لا أمل يرجى فى الدفاع بعد أن هلكت قواتهم ودخل الجيش القشتالى قرطبة فى ٢٣ شوال ٦٣٣هـ/ يونيو ١٢٣٦م ومن غريب الأمر أن هذا الرجل الذى ضنّ بنفسه عن الموت دفاعاً عن الإسلام والعروبة وتوجه إلى شرق الأندلس لجأ إلى المرية عند عامل من عماله يسمى عبد الله الرميمى ، وكان قد استودع هذا الرجل جارية نصرانية لكى يلم بها عندما يريد ، فأخذها ابن الرميمى لنفسه ، وعندما دخل ابن هود قصره قتله الرميمى خنقاً ، وهكذا هلك ذلك الرجل على النحو الذى يستحقه جزاءً وِفاقاً على ما تخلى من أمر الدفاع عن قرطبة عاصمة الخلافة .

## قيام دولة غرناطة :

وخلا الأمر بعد ذلك من زعيم يتولى أمر الدفاع ، ولكن رئيساً جديداً يسمى

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر وينسب نفسه إلى سعد بن عبادة رئيس الأنصار ، نادى بنفسه رئيساً فى قريته أرجونة على بعد ثلاثين كيلومتراً من جيان ، وتوافد عليه جنود الأندلس من كل ناحية ،فانتقل إلى بلدة جيان وأعلن نفسه أميراً على الأندلس واتّسع مُلكه ، فدخلت فى طاعته بلاد الجنوب كلها ، وكان بطبعه رجلاً جادًّا مخلصاً حكيماً حسن التدبير ، فاجتمع حوله نفرٌ من خيرة الرجال أهمهم بيت من كبار الفرسان ، وهم بيت أبى الحسن على بن أشقيلولة أصحاب جيان ومالقة ، وقد عاونوه معاونة كبيرة . وأحس محمد بن يوسف بن نصر بأنه فى حاجة إلى معقل يعتصم به لأن جيان مدينة مكشوفة ، فوقع اختياره على غرناطة وتقع عند سفح جبل الثلج أو سيرانيفادا ، وفى أعلى الجبل كان يقوم حصن منيع عمَّره وسكنه باديس بن حبوس فى أول عصر الطوائف ،فاتجه ابن نصر إلى ذلك الحصن ونزل فى أخريات رمضان سنة ٦٣٥هـ أسفل الجبل ، ثم دخل الحصن واستقر به وأخذ يرمّم أسواره ويوسّع سلطانه ، وتقاطر عليه الناس من كل ناحية ، فأصبح زعيم ما بقى للمسلمين من الأندلس ، وشيئاً فشيئًا يتمكن ذلك الرجل من توسيع نطاق سلطانه ، فدخلت في طاعته بسطة ووادى آش ومالقة والمرية ثم اضطر إلى التخلى عن جيان ، وبعد سقوط قرطبة وجد هذا الرجل أنه لا مفر من أن يدخل فى ولاء ملك قشتالة فرناندو الثالث ، فأصبح من أتباعه خلال الفترة الأولى من قيام دولته وأصبح ملزما بأن يقدم لملك قشتالة مساعدة عسكرية عندما يطلب منه ذلك ، وأن يحضر مجالس الملك فى المدن التى يرى عقدها فيها ، وبالفعل نجد أن محمد بن يوسف بن نصر يضطر بناء على المعاهدة التى وقعها مع ملك قشتالة فى سنة ١٢٤٦ م إلى إرسال معاونة عسكرية اشتركت فى استيلاء القشتاليين على إشبيلية سنة ١٢٤٨ م وقد عَوَّضَ ابنُ الأحمر ذلك بالاستيلاء على طريقِ الجزيرةِ الخضراءِ وجبل طارق ، ولم تحل سنة ١٢٥٥م حتى كان ملكه فى مملكة غرناطة قد استقر وثبت وازداد قوةً بمن توافدَ على بلاد غرناطة من المسلمين من البلاد التى سقطت فى أيدى النصارى .

وقد ازدهرت مملكة غرناطة فى أيام محمد بن يوسف بن نصر ازدهاراً عظيماً نظراً إلى ما امتاز به من عقلٍ وحكمة وحسن تدبيرٍ، وما لقى من تأييدِ زعماءِ المسلمين وخاصة بنى أشقيلولة الذين انفردوا بالسلطان فى وادى آش وبعض النواحى الشمالية من بلاد مملكة غرناطة .

أما بقية بلاد المملكة من أمثال شريش وأركش وشذونة ونيريشة ولبلة والجزيرة الخضراء وجبل طارق ،فقد كانت كلها فى طاعة ذلك الرجل الذى استطاع بحكمته وبعد نظره أن تعمر تلك المملكة الصغيرة التى قامت سنة ١٢٣٢م بعد ذلك فوق القرنين ونصف ، فلم تسقط إلا فى يناير سنة ١٤٩٢م . وقد وصفه ابن الخطيب بأنه « آية من آيات الله فى السذاجة والسلام والجمهورية (أى حب الناس له ) ، جندياً ثغريًا شهماً أبداً ، عظيم التجلّد ، رافضًا للدعة والراحة مؤثراً للتقشف والاكتفاء باليسير متبلّغاً بالقليل ، بعيداً عن التصنّع ، مباشراً للحروب بنفسه ، يلبس الخشن ويؤثر البداوة » ، وتلك صفات جديرة بأن تصل بصاحبها إلى ما وصل إليه محمد بن نصر من النجاح فى إقامة دولته.

حكم أبو عبد الله محمد بن نصر الذى تلقب بـ ( الغالب بالله) فى ٦٢٩ ـ ٦٧١هـ / ١٢٣٢ ـ ١٢٧٣ م وتلك فترة طويلة مكنت له من أن يؤسِّس ملكه ويضع له الأسس التى مكنت له من القيام والثبات وسط العواصف التى أشرنا إليها ، وجدير بالذكر أن الذين طال عمرهم من ملوك غرناطة لم يزد عددهم على ثلاثة أولهم محمد بن نصر هذا ، وابنه محمد بن محمد الملقب بالفقيه ، وأبو الحجاج يوسف بن إسماعيل الذى سنتحدث عنه فيما بعد .

وقد قضى محمد بن نصر أيامه فى تثبيت ملكه فأضاف إليه مالقة والمرية ولورقة ، وبعد وفاة فرناندو الأول سنة ١٢٥٢م جدَّد العهد مع خليفته ألفونسوالعاشر ملك قشتالة وليون الملقب بألفونسو العالم .

وبعد وفاة محمد بن نصر خَلَفَه ابنُه محمدُ بن محمدِ بن نصرٍ المعروف بمحمد الثانى الفقيه (٦٧١ ـ ٧٠١ هـ / ١٢٧٣ ـ ١٣٠٢ م )وقد كان هذا الرجل قريباً من أبيه فى الصفات ولكن ظروفه كانت أسوأ ، لأن ألفونسو العاشر الذى تولى سنة ١٢٥٢م كان رجلاً شديد الحماس الدينى ، يريد أن يقضى على ما بقى للمسلمين فى شبه الجزيرة، وقد تمكّن محمد بن نصر الغالب بالله من تأكيد عهد الولاء معه ، فترك له السلطان على جبال رندة وجبال ألبيرة أى على مملكة غرناطة بحدودها ، ولكن الخلاف وقع فى عهد محمد الثانى بينه وبين بنى أشقيلولة أصحاب مالقة ووادى آش ، وقد انتصر عليهم بمعاونة فارس قشتالى يسمى فيليب دينونيو دى لارا ، كان بينه وبين ألفونسو العاشر خلاف، وأحس محمد الثانى أنه لم يعد

يستطيع الاعتماد على قواه وحدها ، فراسل أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق أمير بنى مرين وطلب إليه أن يعاونه بقوة عسكرية ، فعبر أبو يوسف بنفسه إلى الأندلس لكى يشترك فى الجهاد ، وبالفعل أعان محمد الفقيه على تثبيت أمره وتم الاتفاق على أن تقيم فى مملكة غرناطة قوة من المقاتلين الزناتيين من بنى مرين وغيرهم يرأسهم قائد يسمى شيخ الغزاة ، ومن ذلك الحين سيصبح شيخ الغزاة من كبار الشخصيات فى مملكة غرناطة، وسيقع الخلاف بين بعض شيوخ الغزاة وبعض ملوك غرناطة ، لأن بنى مرين أصبحت لهم مصالح فى شبه الجزيرة الإيبيرية ، أى أنهم دخلوا فى منطقة النزاع على مصير الأندلس .

وكان محمد بن نصر بن الأحمر قد اتفق مع ألفونسو العاشر على أن يساعده فيما كان يفكر فيه من العدوان على بلاد المغرب ، وبالفعل قام الأسطول القشتالى بمهاجمة أصيلا على الساحل المغربى ثم احتل سبتة بمعاونة قوة من ملك غرناطة ، وقد أحفظ بذلك ملوك بنى مرين وأحسّوا بأنه لا بد لهم من أن يتحرروا من ملوك غرناطة فأصبح من شروطهم للاشتراك فى القتال فى الأندلس أن تكون بيدهم الجزيرة الخضراء وجبل طارق ومالقة ، وكانت معقلاً لبنى أشقيلولة أعداء بنى الأحمر .

وفى أيام محمد الفقيه هذا بدأت مشكلة النزاع على مضيق جبل طارق تأخذ شكلها الحازم ، لأن كُلاًّ من مملكة غرناطة ومملكة قشتالة وسلطنة بنى مرين ومملكة أرغون ثم الجمهوريات البحرية الإيطالية وخاصة بيشة وجنوة تنبهت إلى أهمية ذلك الزقاق الذى يعد مفتاح البحر المتوسط ، والسيطرة عليه تتيح لصاحبه قوة بحرية عظمى ، فينفذ إلى المحيط الأطلسى والساحل الغربى لشبه الجزيرة الإيبيرية .وكانت الأنظار قد بدأت تتطلع إلى ما وراء مياه بحر الظلمات ، وبالفعل نسمع أنه فى ذلك العصر المتقدم حاول نفر من الملاّحين البندقيين يسمون آل فيفلدى التوغل فى ذلك المحيط ، ويبدو أن سفنهم غرقت ولكن الفكرة استقرت فى الأذهان على أى حال ، واشتد النزاع بين القوات التى ذكرناها على مصير بحر الزقاق.

وعلى الرغم من كفاية محمد الفقيه واجتهاده فى المحافظة على بلاده ، رغم صعوبة ظروفه ، إلا أنه فقد مدينة طريف التى هاجمها واستولى عليها ودافع عنها

دفاعَ المستميت فارسٌ قشتاليٌّ يسمى الونسو بيريث دى قزمان الملقب بقزمان الطيب . وقد أضعف قوى محمد الفقيه نزاعه مع بنى أشقيلولة الذين انضموا إلى ملك قشتالة على حليفهم وصهرهم وابن دينهم محمد بن محمد بن نصر بن الأحمر ، وكان لهذا الخلاف أثر سيِّئ على مصير مملكة غرناطة ، وسنرى أن داء الخلاف هذا سيكون من أكد الأسباب فى ضياع مملكة غرناطة ، فبعد بنى أشقيلولة سيقوم بنو سراج بنفس الدور المحزن وسيكون لذلك أثره فى ضياع المملكة .

وقبل وفاة محمد الغالب بالله سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٢م عاد ألفونسو العاشر ملك ليون يهاجم أراضى المسلمين طمعاً فى الاستيلاء على مزيد منها ، فاستنجد محمد بن نصر الغالب بالله بأبى يوسف عبد الحق المرينى المعروف بالمنصور سلطان بنى مرين ، فأرسل المنصور قوة من الزناتيين إلى جزيرة طريف فى ذى الحجة ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م أى بعد وفاة محمد الغالب بالله وولاية ابنه محمد ابن محمد بن نصر الملقب بالفقيه ، وبعد قليل لحق به السلطان بنفسه فى السنة التالية ، والتقت قوات المسلمين التى تكونت من قوات غرناطة والمدد الذى جاءها من المرينيين ، ووقع اللقاء بينها وبين قوات مملكة قشتالة وليون فى ١٥ ربيع الأول ٦٧٤هـ / سبتمبر ١٢٧٥م عند أستجة جنوبى قرطبة ، وكان يقود النصارى القائد « دينونيو دى لارا » الذى تسميه النصوص العربية باسم « دننه أو ذونونه » وقد استعد المسلمون للمعركة استعداداً عظيماً وقاد مقدمة الجيش الإسلامى ولىُّ عهد بنى مرين الأمير يوسف بن أبى يوسف عبد الحق المرينى ، وتحمّس المسلمون حماسًا عظيماً وخطبهم السلطان المرينى ليزيد حماسهم ، فانقضوا على القوات النصرانية فى حماس بالغ أعاد إلى الأذهان حماسهم فى موقعتى الزلاقة والأرك على اختلاف فى حجم القوات الإسلامية فى كل من هذه المعارك ، وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً ومزقوا قوات قشتالة شرّ ممزّق وتقدموا يحاصرون إشبيلية على أمل استعادتها ، وأسرع الملك ألفونسو العاشر يطلب الصلح فأجيب إليه ، وهذا يدل على أن قوة الإسلام فى الأندلس كانت لا تزال قادرة على الدفاع عن نفسها ، وأنه لو أتيحت للمسلمين فرص اتحاد الصفوف والوعى إلى أهمية المعركة الدائرة على أرض الأندلس لاستطاعوا أن يَثْبُتُوا لأعدائهم وأن يُحافظوا على ما بقى لهم من أرض فيها .

وقبل أن نستطرد مع ذكر الحوادث لا بد أن نضيف كلمة نُقدِّر بها محمد بن نصر بن الأحمر الغالب بالله الذى أنشأ هذه المملكة ، واستطاع بما رزقه الله من خِلال الشجاعة والذكاء وحسن التدبير وبعد النظر ، أن يؤسِّس هذه المملكة فيما بقى للإسلام من أرض قليلة فى شبه الجزيرة ، ويضع لها من الأسس التى مكنت لها من الصمود للضغط النصرانى المتزايد نحو قرنين ونصف من الزمن .

وقد رأينا ما كان فى بلاء أبى عبد الله محمد بن محمد بن نصر الفقيه الذى كسب موقعة أستجة بالتعاون مع القوات المرينية ، ولم يكن الفقيه ليقل كفاية عن أبيه ، فقد تمكن خلال الفترة الطويلة التى حكمها ( ٦٧١ ـ ٧٠١ هـ / ١٢٧٣ ـ ١٣٠٢م ) من أن يحافظ على مملكته ويزيد من قوتها ، وإن كنا نلاحظ أنه لجأ إلى أمر سيلجأ إليه ملوك غرناطة بين الحين والحين ، وهو التخوف من بنى مرين ومحاولة الانضمام إلى ملوك قشتالة ضدهم ، مما أدّى فى النهاية إلى وقوع النفور بين المرينيين وبنى نصر ، وكان فى النهاية وبالاً على مصير الإسلام فى الأندلس ، ونشير هنا إلى حقيقة تجلت أكثر من مرة خلال هذا التاريخ ، وهى أن أكثر ما آذى الإسلام فى الأندلس هو خلاف المسلمين بعضهم مع بعض ، فقد كان ذلك أشد وطأةً عليهم من أىِّ خطرٍ آخرَ.

وعندما توفى محمد الفقيه سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠٢م ترك لابنه وخليفته أبى عبد الله محمد الثالث الملقب بالمخلوع مملكةً قويةً زاهرةً ، وإن أحاط بها الأعداءُ من كلِّ جانب، وجثمت فوق صدرها المصاعب من كل نوع .

ولن يتسع المجال لنذكر كل ملوك بنى نصر فقد كانوا كثيرين ، ولكننا نكتفى بالوقوف عند اثنين منهم ، يعتبران أقدر مَنْ تولَّى أمر هذه المملكة بعد محمد الغالب بالله وابنه محمد الفقيه .

فأما الأول فهو أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبو سعيد فرج بن أبى الوليد إسماعيل بن محمد بن نصر مؤسس الدولة الذى حكم فيها بين سنتى ٧١٣ ـ ٧٢٥ هـ / ١٣١٤ ـ ١٣٢٥م فقد كان هذا الرجل حازماً بعيد النظر مدركاً لحقائق الوضع فى مملكته الصغيرة ، وقد تمكن بسياسته من الحفاظ على أراضى بلاده ، بل تمكن من التخلص من التبعية لقشتالة ، واستقل بنفسه معتمداً على معاونة

قوات بنى مرين التى كانت قد حصلت على حق الإقامة بصورة مستمرة فى بلاد غرناطة للاشتراك فى الدفاع عنها عن طريق ما يعرف بمشيخة الغزاة التى سنتحدث عنها بعد قليل .

وفى أيام أبى سعيد فرج هذا حدث لقاء ثان بين قوات مملكة قشتالة وقوات الإسلام فى شبه الجزيرة ، وذلك أن ألفونسو العاشر طمع فى بلاد المسلمين من جديد وأراد أن يعيد مملكة غرناطة إلى الطاعة له ، ولكنه لم يستطع لأن ابنه شانجو الرابع ثار عليه سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م ، واستنجد ألفونسو العاشر بالسلطان المرينى على ابنه ، وعبر أبو يوسف عبد الحق المنصور المرينى إلى الأندلس، والتقى مع ألفونسو العاشر بأحواز الصخرة فى كورة تاكورونيا قرب رندة ، ورهن تَاجَهُ لديه ، بل قبَّلَ يدَه رجاءَ معاونته ، وقد أدّى عمله هذا إلى نفور زعماء قشتالة من ملكهم هذا ، فانضموا إلى ابنه شانجو الرابع فعزلوا ألفونسو العاشر سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤م فانصرف بقية أيامِهِ إلى الدراسة والبحث والتأليف والترجمة من العربية إلى القشتالية ، مما استحق به أن يسمّى بالملك ألفونسو العالم . ومن المؤرخين من يقولون إن الذى لجأ إلى السلطان المرينى كان الابن وهو شانجو الرابع الذى تمكن بمعاونة المسلمين من التغلب على أبيه وخلعِهِ والانفراد بالعرش .

ولم يكد الأمر يستقر لشانجو الرابع حتى بدأ يفكر فى غزو أراضى المسلمين ، ووقع ذلك فى أيام أبى الوليد إسماعيل النصرى الذى نتحدث عنه ، فتقدمت قوات نصرانية كبيرة نحو غرناطة بجيش ضخم يقوده دون بترو ، ودون خوان الوصيين على ملك قشتالة الصغير وهو ألفونسو الحادى عشر الذى خَلَفَ أباه شانجو الرابع وانضمت إلى قواتهما قوات كبيرة من الصليبيين ما بين فرنجة وإنجليز وكان اللقاء الحاسم قرب غرناطة وفى مرجها فى ٢٠ ربيع الثانى ٧١٨هـ/ مايو ١٣١٨ م وكان شيخ الغزاة هو أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء ، وقد انتصر المسلمون فى هذه المعركة نصراً يعدل انتصارهم الأول عند صخرة «عبّاد» ، وهكذا أثبت المسلمون أنهم قادرون على كسب النصر إذا هم اجتمعت صفوفهم وصدقوا النية فى الجهاد ،وكان لهذه المعركة الثانية أثر بعيد فى تثبيت

أركان مملكة غـرناطة التى استطاع رجالها أن يستعيـدوا بعض البلاد والحصون التى كانوا قد فقدوها من قبل .

وبعـد هذا النصر بقليل أُغْتِيل سلطـان غـرنـاطة أبـو الـوليد إسماعيل سنـة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م ويعتبر هذا الـرجل من أكفأ من تولى عـرش غرنـاطة ، وإليـه يرجع الفضل فى إقامة الكثير من منشآت الحمراء .

***



obeikandl.com

## أبو الحجاج يوسف الأول ابن أبى الوليد إسماعيل
## ٧٢٥ ـ ٧٥٥ هـ / ١٣٢٥ ـ ١٣٥٤ م

يعتبر هذا الرجل آخر الكبار من ملوك غرناطة ، فقد بذل أقصى جهده فى المحافظة على بلاده من عدوان مملكة قشتالة ، وعلى الرغم من ملكاته الكثيرة وطول حكمه الذى مكّن له من أن يقدم لمملكة غرناطة خدمات جليلة إلا أن ظروف تلك المملكة ما كانت لتساعدها على الصمود إلى النهاية وحدها أمام ضغط نصرانى متزايد ، وقد جاءت العلة الكبرى فى اختلاف أفراد البيت النصرى بعضهم على بعض واستعانة بعضهم بملوك قشتالة ، ثم إن العلاقات لم تكن طيبةً دائماً بين سلاطين غرناطة ومشيخة الغزاة .

### مشيخة الغزاة :

عقب انتصار المسلمين على النصارى فى موقعة الصخرة ، استقر الاتفاق بين سلطان بنى نصر وسلطان المرينيين على أن تقام فى أراضى غرناطة قوةٌ دائمةٌ من المقاتلين المرينيين للاشتراك فى الجهاد ، وفى سبيل ذلك تنازلت مملكة غرناطة لأولئك المجاهدين المرينيين الذين سموا بالغزاة وكانت رياستهم تسمى مشيخة الغزاة ، تنازلت لهم عن الجزيرة الخضراء ومالقة وبعض مراكز أخرى لكى تكون معابر ومراكز لهم فى الأندلس لكى يستطيعوا مواصلة عملهم الدينى الكبير ، وكان أول شيخ للغزاة ، هو عبد الله أبو العلاء المرينى، وعندما توفى ذلك الرجل خَلَفَهُ أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء ، وفى أيامه أصبحت مشيخة الغزاة قوة لها أهميتها فى مملكة غرناطة ، وتدخل شيخ الغزاة فى الأمور الداخلية للمملكة و أَيَّدَ بعض منافسى السلطان ، ومن ناحية أخرى نجد أن السلطان النصرى يحاول من جهته التدبير على مشيخة الغزاة ، وربما تحالف مع القوات النصرانية عليهم ، والحقيقة أن بنى مرين أصبحت لهم ، كما ذكرنا ، مصالح خاصة فى الأندلس ودخلوا فى التنافس على مصير مضيق جبل طارق مع مملكة غرناطة ، ومع مملكة قشتالة وليون ومملكة أرغون والجمهوريات الإيطالية ، وكان هذا الاختلاف فى المصالح بين المسلمين من أشد الأخطار التى تهددت مملكة غرناطة وأضعفت قواها.

## وقعة طريف :

وقد تجلّى ذلك بصورة ظاهرة فى لقاء حاسم وقع بين الإسلام والنصرانية فى أيام أبى الحجاج يوسف بن أبى الوليد إسماعيل الذى نتحدث عنه ، فقد كان هذا الرجل ـ كما قلنا ـ واسعَ المطامع جَمَّ النشاط ، وكان قد تولّى أمر بنى مرين السلطان أبو الحسن بن عثمان بن أبى يعقوب المرينى المشهور باسم أبى الحسن، وكانت حياته سلسلة من المغامرات والوقائع فى المغرب والأندلس حتى يمكن روايتها على أنها قصة من صنع الخيال .

ففى جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ/أكتوبر ١٣٤٠ م جمع ملك قشتالة قوات ضخمة من القشتاليين ، وانضمَّت إليهم قوات أخرى من الأرغونيين والبرتغاليين ، وسار الجميع ووجهتهم مدينة طريف للاستيلاء عليها بصورة نهائية لقطع الطريق بين الأندلس والمغرب ، وقد اتَّخَذَ فى هذه الظروف أبو الحجاج يوسف بن نصر والسلطان أبو الحسن المرينى إدراكاً منهما لأهمية تلك المعركة ، ولكن النصر لم يحالف المسلمين فى ذلك اللقاء ودارت عليهم هزيمة حاسمة فى تاريخ الأندلس ، هى هزيمة طريف فى ٧ جمادى الأولى ٧٤١هـ / ٣٠ أكتوبر ١٣٤٠م وعقب تلك الهزيمة سقطت طريف وتمهد الطريق لسقوط جبل طارق والفصل النهائى بين الأندلس والمغرب .

وعلى أى حال فقد كانت هذه المعركة نهاية للمعاونة المرينية للأندلس ، وذلك بدوره قطع الأمل فى أن تستطيع قوات غرناطة الثبات أمداً طويلاً ، وبعد المعركة بقليل اتجه ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة لحصار جبل طارق وكاد يستولى عليه لولا أن الفونسو الحادى عشر توفى أثناء الحصار ، وقد أبدى المسلمون شهامة فى تلك المناسبة ، فقد كانوا يُحاصرون القوات القشتالية المُحَاصِرَة ، فلَما بلغهم موتُ الملك أفرجوا للقوات النصرانية لتنسحب حاملةً تابوتَ الملكِ الميتِ وحيّوه تحيةً عسكريةً .

وفى سنة ٨٦٧ هـ /١٤٦٢م سقطت قلعة جبل طارق بيد القشتاليين وبذلك أصبحت مملكة غرناطةمحاصرة تماماً بالقوات النصرانية ولا سبيل إلى معاونتها ، وكان ذلك فى أيام أبى عبد الله محمد بن أبى الوليد إسماعيل الملقب بالغنى بالله ، وقد طال حكم هذا الرجل إذ استمر يحكم إلى ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م وكان من أقدر

ملوك غرناطة ، وفى أيامه ظهر وعمل ابن الخطيب آخر العظماء من كتاب الأندلس ومفكّريه ،وقد دارت على ذلك الرجل ووزيره ابن الخطيب محن طويلة ، وكثر الثائرون عليه من أهل بيته حتى اضطر إلى الهرب إلى المغرب للاستنجاد بالسلطان المرينى ، ثم عاد إلى الأندلس وتمكن من استعادة عرشه ، ولكن الأمور لم تَصفُ له قَطُّ . فقد دخل فى صراع مرير وخطر مع بنى سراج ، وكانوا من أكبر الأسر فى مملكة غرناطة ، وقد توفى ذلك الرجل قتيلاً على يد رجلٍ قيل إنه مخبول فى يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ / ١٩ أكتوبر ١٣٥٩ م. وإلى هذا الرجل محمد الغنى بالله يُعزَى الجانب الأكبر من منشآت قصورالحمراء ،فهو الذى أنشأ باب الشريعة ومدرسة غرناطة واعتنى بحدائق جنة العريف .

ومن أكبر الرجال الذين ظهروا فى غرناطة فى ذلك العصر: الحاجب أبو النعيم رضوان وأصله من أسرى القشتاليين من أسرة نبيلة شريفة ، ولكن ذلك الغلام شَبَّ مسلماً مجاهداً فى سبيل الإسلام ، وكان من أعاظم رجال الدولة ،وقد عاصره ابن الخطيب ، وهو يثنى عليه ثناء طويلاً ، وأمثال أبى النعيم رضوان كثيرون فى تاريخ مملكة غرناطة ،وقد قتل هذا الرجل فى فراشه إذ اغتاله بعض أعداء السلطان .

## تدهور مملكة غرناطة :

وبعد محمد الغنىّ بالله لم تعد غرناطة إلى سابق قوتها أبداً إذ تعاقب الملوك على العرش ووقعت بينهم الخلافات والحروب ، وكان كل منهم يستعين بملوك قشتالة على إخوانه ، وفى كل معركة كان المسلمون يفقدون حصونًا وبلاداً ذات أهمية حتى انتهى أمر المملكة فى النهاية إلى الاقتصار على مدينة غرناطة ومدينة وادى آش وما حولهما .

وتجلى ضعف مملكة غرناطة وقرب سقوطها فى أيام أبى الحجاج يوسف الثانى المتوفى سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩٢م ، فقد اشتد العداء بينه وبين بنى سراج وانتهز ملك قشتالة الفرصة فاستولى على بلدة الزهراء المجاورة لغرناطة سنة ٨٠٩هـ / ١٤١٧م .

وبعد سقوط جبل طارق سنة ١٤٦٢م على يد القائد رودريجو بونسى

دليون الملقب بدوق مدينة سالم ، لم يعد هناك أملٌ فى أن تظل مملكة غرناطة وقتاً طويلاً، وقد تجلّت نهايتها بوضوح سنة ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م وهى السنة التى تم فيها الاتحاد بين الملك فرناندو الرابع ملك أرغون والملكة إيزابيلاّ الثانية ملكة قشتالة ، وكانا قد تزوَّجا قبل ذلك بعشر سنوات ، وكان معنى ذلك أن إسبانيا النصرانية كلها قد أصبحت كتلتين تعملان على القضاء على ما بقى للمسلمين فى شبه الجزيرة : الأولى مملكة قشتالة وأرغون وكانت تقوم بالنصيب الأكبر فى القضاء على مملكة غرناطة ، ثم مملكة البرتغال التى أتمت الاستيلاء على غرب الأندلس ، وبدأت قواتها تهاجم السواحل المغربية وتنشئ عليها مراكز عسكرية لتواصل الغزو فى أراضى المسلمين ، وقد تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على سبتة ولكنهم تخلوا عنها لقشتالة وظلت فى أيدى الإسبان إلى اليوم .

## نهاية مملكة غرناطة :

فى أواخر سنة ٨٨٧هـ تولى عرش غرناطة محمد بن أبى الحسن على ، الذى يعرف باسم أبى عبد الله أو « بو أبديل » فى النصوص النصرانية ، وكان والده أبو الحسن على قد تزوج على زوجته الحرة عائشة، زوجة نصرانية سمّيت «ثريا» وأبو عبد الله هذا هو ابنها ،وكان أبو الحسن سلطاناً ضعيفاً محاطاً بالمصاعب ، تنافست النساء فى عصره على حيازة العرش لأبنائهن ، وطال النزاع بين أبى عبد الله الذى ذكرناه ، وعمه أبى عبد الله محمد بن سعد ، الملقب بالزغل أى الباسل أو الشجاع .

وبعد منافسات طويلة قرر فرناندو وإيزابيلاّ القضاء نهائيًا على مملكة غرناطة ، فسارا لحصارها بقوات ضخمة ، وفى النهاية عقد أبو عبد الله الزغل معاهدة التسليم مع مَلِكَى قشتالة وليون فى ٢١ من المحرم سنة ٨٩٧هـ/ نوفمبر ١٤٩١ م أما دخول الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيًلا مدينة غرناطة فكان فى ٢ ربيع الأول ٨٩٧ / ٢ يناير ١٤٩٢ وهو تاريخ حاسم فى تاريخ الإسلام والغرب الأوربى ، وقد احتفلت به البلاد النصرانية كلها وأمرت البابوية أن تقرع كنائس أوربا كلها احتفالاً بتلك المناسبة ، ومع الأسف إننا لا نملك نصوصاً عربيةً تصف أواخر مملكة غرناطة ، لأن التواريخ المعتمدة تنتهى بوفاة ابن الخطيب ،

ولكننا وجدنا كتاباً مجهول المؤلف يسمى « نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر » يقص علينا أطرافا من أخبار مأساة غرناطة فى أيامها الأخيرة ، وكذلك عثرنا على نص كتاب « جنة الرضا فى التسليم بما قدر الله تعالى وقضى » لابن عاصم ، وكانت لدينا قبل ذلك أجزاء منه ، احتفظ بها المقرى فى « نفح الطيب» و« أزهار الرياض » .

وقد نصت معاهدة التسليم على أن يحتفظ للمسلمين فى غرناطة بكل حقوقهم، وأن تظل لهم مساجدهم وأن يقيم منهم من أراد تحت العدل والإنصاف ويهاجر منهم من أراد ، ولكن النصارى ما كادوا يستولون على غرناطة حتى نسوا كل ما عاهدوا المسلمين عليه ، وكان أول ما فعلوه تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة ، ثم بدأت سياسة الاضطهاد لمسلمى غرناطة الذين دخلوا فى جملة المدجنين أى المسلمين الذين دُجِّنُوا فى مواطنهم تحت حكم النصارى وقَبِلوا حكمهم ، وقد ثار المسلمون على تلك المعاملة مرَّةً بعد أخرى . ولكن الأمر انتهى بطرد بقاياهم من الأندلس سنة ١٦٠٩م ، أيام الملك فيليب الرابع ، وبذلك انتهت قصة الإسلام فى شبه الجزيرة ، وإن بقيت آثاره الحضارية ماثلةً إلى اليوم.

ولا يتّسع المجال لدراسة تاريخ المسلمين فى شبه الجزيرة الإيبيرية بعد سقوط غرناطة ،فذلك تاريخ طويل تبدّلت فيه الأحوال بالنسبة لمن بقى فى شبه الجزيرة على إسلامه وخضع للنصارى ، وهؤلاء هم المُدَجَّنُون ومن تَنَصَّرَ منهم تَنَصُّراً ظاهريًا أو حقيقيا ، وهؤلاء هم المورسكيون ، وكلا الفريقين عوملوا معاملة الأسرى وهبطوا بهم إلى مستوى الرقيق والأقنان وأصابهم الاضطهاد والإذلال ، وثاروا مرة بعد أخرى حتى صدر قرار إخراج بقاياهم من شبه الجزيرة سنة ١٦٠٩م كما قلنا ، وقد استوفى أخبارهم الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه المسمى « نهاية الأندلس » ، « وتاريخ العرب المتنصِّرين » وهو الجزء الأخير من تاريخه الحافل المطول للأندلس وتاريخ المسلمين فيه ، وقد اعتمد فيه أساساً على مراجع كثيرة بعضها إسبانى وبعضها برتغالى ، ولكن مُعَوَّلَهُ الأكبرَ على التاريخ الذى كتبه المؤرخ الإنجليزى « لى » عن تاريخ محاكم التفتيش فى الأندلس.